

## الاتساع الدلالي للأساليب القرآنية الشريف المرتضى نموذجا

كشف المفسرون والبلاغيون عن توسع دلالي للأساليب القرآنية المتنوعة ، وهذا التوسع ينبء عن توسع في مستويات المعاني أيضا .

فلولا ما يتصف به النص من سمات دلالية على مستوى المعنى والأسلوب والتعبير ، لم تنطلق الأفهام والتأويلات لتشير لهذه السمة الأصيلة بالنص .

وهذا ما حفز المفسرون والبلاغيون لاقتفاء آثار السابقين للكشف عن التأويلات واستنباط خفايا المعاني المحتملة في بطون النص .

قال د محمد المنجد في كتابه : (اتساع الدلالة في الخطاب القرآني) ؛ متحدثا عن تعدد التأويلات في الخطاب القرآني :

" واتساع الدلالة في القرآن الكريم بهذا المفهوم (أي مفهوم تعدد التأويلات) باب من أبواب الإعجاز عريض (...) تدل على معان مجتمعة في تركيب لغوي واحد ، لو اختلف هذا التركيب لانفرط عقد تلك المعاني ، واحتيج إلى تراكيب بعدد تلك المعاني لتعبر عنها " ص77 .

ويعد العلامة الشريف المرتضى من المفسرين الأوائل الذين عنوا بعرض أوجه الدلالات المتعددة للنص القرآني ، ومناقشتها واستبعاد الاحتمالات البعيدة عن النص بمرجحات عقلية أو لغوية أو شرعية .

ومن الآيات التي عدد أوجهها لها : الآية التي افتتحنا بها مقالنا . ونظرا لما اتسمت أساليبها التعبيرية ، جعلتها في مصاف الآيات التي حوت تركيبا أسلوبيا بديعا ؛ حتى أن المفسر الطاهر بن عاشور عد الجملة من قوله تعالى : (فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ ° فِي أَفْوََاهِهِمْ °) من التراكيب غير المسبوقة في لغة العرب ، قال :

" وهذا التركيب لا أعهد سبق مثله في كلام العرب فلعله من مبتكرات القرآن " .

وأثناء استعراض الآراء سنلمح لجملة من الأوجه البيانية لتحليل هذا التركيب البلاغي العميق .

وفي غضون اطلاعي وبحثي ، وجدت أفضل من استعرض هذه الأوجه هو العلامة الشريف المرتضى (ت 434هـجري) في أماليه .

وسنقوم بعرض الآراء والم احتملات التي سطرها ، بتقسيمها على مستويين :

1- مستوى دلالات التعبير الحقيقي .

2- مستوى دلالات التعبير المجازي .

والغاية من عرض الظاهرة الدلالية للآية بهذا النحو ؛ لما تحتمل تركيبة المبنى من المعنى الحقيقي والمعنى المجازي .

لذا لا بد من بسط العرض والتحليل وفق المستويين ؛ لتنجلي اتجاهات الدلالة ، من ثم تقريب المعنى والغرض وفق أكثر الاحتملات ترجيحاً .

ابتدأ المرتضى تحليل الآية بتساؤل عن دلالة قوله : ( جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْأَيْدِيَّاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ) .

قال :

" أي معنى لرد الأيدي في الأفواه ؟ وأي مدخل لذلك في التكذيب بالرسول (عليهم السلام) ؟ " .

بعدها استعرض وجوهاً محتملة ، هي :

1- أ ولا / وجوه التعبير الحقيقي :

1- إخبار عن القوم بأنهم عضوا على أيديهم غيظاً وحنقاً على الأنبياء ، كما هو حال المتوعد الذي يعص على أصابعه أو يفرك أصابعه أو يضرب بإحدى يديه .

وبناء على هذا الوجه يكون (هاء الضمير) في كلمتي (أيديهم) و (أفواههم) يعود للكفار .

\* وهذا الوجه أشار له (الزجاج ، 311هجري) في (معاني القرآن وإعرابه ج3ص127) ، نقله عن ابن مسعود :

" أنهم (الكفار) عضوا أناملهم غيظا مما أتتهم به الرسل " .

\* وقد ذكر ابن عاشور في (التحرير والتنوير 14/9) تعليلا آخر لهذا الفعل الذي صدر منهم ، قال

"... ومعنى {فردوا أيديهم في أفواههم} أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدة الضحك من كلام الرسل كراهية أن تظهر دواخل أفواههم . وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء بالرسل .

والرد : مستعمل في معنى تكرير جعل الأيدي في الأفواه (...). فيقتضي أن يكون رد الأيدي في الأفواه تمثيلاً لحال المتعجب المستهزء ، فالكلام تمثيل للحالة المعتادة..." .

2- أن يكون (ضمير الهاء) في كلمة (أيديهم) للكفار المكذبين ، وهاء كلمة (أفواههم) للرسل .

والمعنى : أن الكفار لما سمعوا وعظ الأنبياء أشاروا بأيدي أنفسهم لأفواه الرسل كي يمنعوا كلامهم ويسكتوهم .

وقد ألمح (الفراء ، 207هجري) لهذا الوجه في (معاني القرآن ج2ص5) :

" كانوا يكذبونهم ويردون القول بأيديهم إلى أفواه الرسل " .

3- أن تكون (هاء الضمير) في الكلمتين تعود للرسل ، والمعنى : أن الكفار يأخذون بأيدي الرسل على أفواههم ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم .

4- أن تكون (هاء الضمير) في الكلمتين تعود للكفار ، والمعنى : أن الكفار إذا سمعوا وعظ الانبياء وضعوا أيدي أنفسهم على أفواههم ليشيروا للأنبياء بالكف عن الكلام ، كمن يضع إصبعه على فمه ليست المتكلم .

وقد أشار لهذا (الفراء) عن ابن عباس :

" كانوا (الكفار) إذا جاءهم الرسول قالوا له اسكت . وأشاروا بأصابعهم إلى أفواه أنفسهم " .

ونقل (الفراء) أيضا قولا :

" ردوا ما لو قبلوه لكان نعمًا وأيادي من ا□ في أفواههم ، يقول بأفواههم أي بألسنتهم " . وربطه بتعليل أن حرف (في) قد يأتي بمعنى (الباء) ، فيكون المعنى (فردوا أيديهم بأفواههم) .

كما أشار (الزجاج) أيضا لهذا الوجه بقوله عن معنى (فردوا أيديهم) :

" أو مأوا إلى الرسل أن اسكتوا " .

وقد تبني الرضي ، ت406هجري) وجها قريبا من هذا في كتابه (تلخيص البيان في مجازات القرآن ص127) ، قال :

" أن الكفار كانوا إذا بدأ الرسل عليهم السلام بكلامهم ، سدوا بأيديهم أسماعهم دفعة ، وأفواههم دفعة ؛ إظهارا منهم لقلّة الرغبة في سماع كلامهم وجواب مقالهم (...) وشاهد ذلك قوله سبحانه وتعالى حاكيا عن نوح عليه السلام ، ويعني قومه : (وَإِنِّي كَلِمَةٌ مَّا دَعَوْتُهُمْ لِئَتَّخِذُوا لِي آلًا وَإِنِّي لَهُمٌ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا) [سورة نوح 7] .

فيكون معنى رد أيديهم في أفواههم على القول والذي قلناه : أن يمسكوا أفواههم بأفواههم كما يفعل المظهر للامتناع من الكلام ، ويكون إنما ذكر تعالى رد الأيدي (...) لأنهم كانوا يكثررون هذا الفعل عند كلام الرسل عليهم السلام (...). فقد يقول القائل لغيره : اردد يدك إليك ، بمعنى : اقبضها وكفها ... " .

ثانيا / وجوه التعبير المجازي :

سنطلق من مفردة (اليد) و (الأفواه) ، ففي اللغة لا تعنيان فقط العضو في جسم الكائن ، فلو عدنا

للمعجم لرأينا معاني كثيرة في مراد اليد والفاه ، وتعتمد هذه المعاني على السياق .

الآن نعرض الوجوه المجازية :

5- ان تكون هاء الضمير في كلمة (أيديهم) تعود للكفار ، وهاء الضمير لكلمة (أفواههم) تعود للرسول .

والمعنى : فردوا القول بأيدي أنفسهم إلى أفواه الرسل ؛ لتكذيبهم . وقد ذكرت الأيدي مثلا تأكيدا ، كما يقول القائل : أهلك فلان نفسه بيده ، أي وقع له الهلاك من قبله .

وهذا الوجه أشار له (أبو عبيدة بن المثنى ، ت 210هجري) في (مجاز القرآن ج1ص336) واعتبر " مجازه مجاز المثل (أي معناه كالمثل) ، وموضعه موضع : كفوا عما أمروا بقوله من الحق ، ولم يؤمنوا به ولم يسلموا . ويقال : رد يده في فمه ، أي أمسك إذا لم يجب " .

كما أشار القاضي عبد الجبار المعتزلي ، ت415هجري) في ( تنزيه القرآن عن المطاعن ص234) : " وهو كناية عن ترك القبول منهم لأن هناك استعمالا لليد في رد قولهم وبيانهم " . واستشهد بقريئة (تصدونا) في الآية التي بعدها ، وهي قوله تعالى ، يحكي لسان حال الكفار : (قَالُوا إِنَّا أَنْزَلْنَاهُمْ إِنْ شَاءَ رَبُّنَا بِأَشْرٍ مِنْهُ لِنُنْزِلَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَنْ تَصُدُّونَنَا وَأَنْ تَصُدُّونَنَا وَعَمَّا كَانَ يَْعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآؤُنَا بِرِسْلَانٍ مِثْلَانٍ مُبِينٍ) [سورة إبراهيم 10] .

كما أشار لهذا العلامة الطباطبائي :

... قوله : [ جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم ] الظاهر أن المراد به أن رسلهم جاءوهم بحجج بيينة تبين الحق وتجليه من غير أي إبهام وريب فمنعوهم أن يتفوهوا بالحق وسدوا عليهم طريق التكلم .

فالضميران في : [ أيديهم ] و [ أفواههم ] للرسول ، ورد أيديهم في أفواههم كناية عن إجبارهم على أن يسكتوا ويكفوا عن التكلم بالحق كأنهم أخذوا بأيدي رسلهم وردوها في أفواههم إيذانا بأن من الواجب عليكم أن تكفوا عن الكلام ، ويؤيده قوله بعد : [ وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ] فإن دعوى الشك والريب قبل الحجة البيينة والحق الصريح الذي لا يبقي مجالا للشك

لا تتحقق إلا من جاحد مكابر متحكم مجازف لا يستطيع أن يسمع كلمة الحق فيجبر قائلها على السكوت والصمت " .

6- المراد بالأيدي : النعم . أي نعم الرسل من الوعظ والإرشاد ، فتكون هاء الضمير في كلمة (أيديهم) تعود للأنبياء ، و (في) بمعنى الباء ، والمعنى : فرد الكفار بأفواههم وعظ الرسل .

وقد تكون هاء الضمير في (أيديهم) تعود للكفار ، فتكون أيدي الكفار من نعم الله .

وقد أشار لهذا الوجه الفراء ، بقوله : " ردوا ما لو قبلوه لكان نعماً وأيدي من الله في أفواههم ، يقول بأفواههم أي بألسنتهم " . وربطه بتعليل أن حرف (في) قد يأتي بمعنى (الباء) ، فيكون المعنى (فردوا أيديهم بأفواههم) .

وأشار الزجاج لهذا ، حيث اعتبر الضمير في كلمة (أيديهم) تعود إلى الرسل ، والمعنى : " ردوا أيدي الرسل ، وهنا الأيدي بمعنى : النعم وهي البيئات .

في أفواههم أي بالنطق بالتكذيب لما جاءت به الرسل .

7- نقله عن أبي مسلم بن بحر ، قال : هاء الضمير في كلمتي (أيديهم) و (أفواههم) تعودان للرسل . ومراد اليد : ما نطق الرسل به من الحجج والبيانات للناس . ولأن اليد تطلق مجازاً على (النعم ، والسلطان ، والملك ، والعهد ، والعقد) ؛ ولأن الوعظ يخرج من الأفواه ، فيكون ردها وتكذيبها من ناحية القول من حيث جاء .

تحليل وخلاصة :

بعد استعراض أوجه التعبيرين الحقيقي والمجازي للآية ، هل بالإمكان التوفيق بين مساري التعبيرين والأوجه ؟

1- لكي نرجح بين الأقوال المحتملة ، سننطلق من السياق بشقيه :

الداخلي : (الآية نفسها) .

والخارجي : (آيات قرآنية شبيهة بهذا الأسلوب) .

2- ولكي نكشف عن طبيعة السياق ، لا بد من وجود قرائن تدعم أحد الأسلوبين (الحقيقي أو المجازي) .

3- من خلال ما قدمناه من وجوه لدلالة تعبير الأسلوب الحقيقي ، نجد أن معنى : (رد الأيدي والأفواه) ، أرجع إلى الكفار مرة وأخرى للأنبياء ، بسبب الضمير الذي اختلف المفسرون في إرجاعه ؛ حيث يحتمل طبيعة السياق الإرجاعين .

وهذا التعبير وإن كان حقيقيا عند فريق من المفسرين ، إلا أن بناءه مجازي ، حيث عبر عن الأصابع أو الكف باليد .

ولعل أقرب تعبير قرآني لهذه الآية ، هو قوله تعالى : ( وَإِذْ أَلَقْنَا بِكُمُ الْهَلَاكَ وَالْجَنَّةَ إِذْ أَنْذَرْنَاكُمْ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُرًا ﴿١١٩﴾ ) (سورة آل عمران 119) .

4- أما وجوه التعبير المجازي ، فهي تعتمد على دلالة الأيدي والأفواه مركبة ، في رسم صورة كناية عن الرفض والصد لدعوات الأنبياء ، وبعض الدلالات مجزأة بين الأنبياء والكفار ، لكن الغاية نفسها .

وما يساعد على الدلالة المجازية ورود كلمة (النعم) في آية سبقت الآية (9) ، وهي قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّانَ مِنْ السَّمَاءِ وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ وَالْجِبَالِ كَهَيْئَةِ الْبُحَيْرِ الْمَوَّاجَةِ ﴿١٠١﴾ ) (سورة إبراهيم 6) .

وفي الآية التاسعة قرينة مساعدة في ذكر كفرهم وصددهم وتشكيكهم في دعوة الأنبياء .

لذا اعتمد المفسرون على هذه القرائن في دلالة (رد الأيدي في الأفواه) بأن المقصود باليد والأفواه المعاني المجازية لا الحقيقية ، أي أن الرد هو كناية عن الرفض والصد والعناد والإحجام عن دعوة الأنبياء .

وهناك سياقات قرآنية شبيهة بهذا التعبير ، مثل قوله تعالى :

(سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوا بكم وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا ۖ فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلْوكُمْ وَيُلَاقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۖ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا) [سورة النساء 91] .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُورُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَعَلَى اللَّهِ فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كَلِمَ الْهُدَى وَالْهُدَى) (سورة المائدة 11) .

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ۖ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۖ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۖ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) [سورة التوبة 67] .

5- تشترك دلالات التعبيرين الحقيقي والمجازي في تأكيد غاية واحدة ، هي : الحكاية عن الرفض والاعتراض والممانعة . فالتعبير الحقيقي : سواء كان بمعنى (عض الأنامل حنقا وغيظا ، او إشارة للانباء بالإسكات أو بالاستهزاء ) ؛ فكل ذلك حكاية عن رفض دعوة الانبياء .

وفي التعبير المجازي : سواء كان المعنى (كناية عن إهلاك الكافر لنفسه ، أو أن رد اليد بمعنى رد النعمة ، أو رد بيانات الأنبياء) ؛ فكل هذه المعاني هي حكاية عن الرفض والإحجام عن وعظ الأنبياء .

وبناء على ذلك من الممكن أن يحتمل النص هذه الأوجه ؛ لأنها لا تتعارض في تأدية الدلالة العامة ، ولا تتعارض بمجموعها ؛ فيما لو افترضنا أنها تحكي عدة أساليب وقعت مع أكثر من نبي .

6- يكمن التوسع الدلالي في الآية ، عبر :

نظام توزيع الضمائر .

فإذا دققنا في جملة : (جَاءَ تَهُمُّمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا نَرَاهُمْ بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا

تَدْعُوْنَزَنَدًا إِلَيْهِمْ مُرِيْبٍ) . سلاحظ أن بنية الجملة أسست على إرجاع الضمائر لكلمة (قوم) ، لكن حينما أدخلت كلمة (رسلهم) أمكن أن نحتمل تغير إرجاع الضمير في الكلمتين (أيدي وأفواه) إلى الرسل .

التعبير المجازي والكنائي ، أوجد قابلية للدلالة أن تتسع وتحتمل وجوها .

توفر قرينة معنوية في الآية وسياقها لتوجيه الدلالات المحتملة ، بمعنى أن الجملة وان تعددت الدلالات والمعاني المحتملة فيها ، لكنها صيغت بنظام أسلوبى يجعل الأفهام موجهة إلى دلالات متنوعة توصل لمقصد النص دون تناقض أو شتات .

الإيجاز والتكثف الدلالي ، فعدد الكلمات التي وسعت الدلالة (4 كلمات : فردوا ، أيديهم ، في ، أفواههم) ، إضافة إلى ما تكتنزه صورة (رد الأيدي في الأفواه) من معاني مختزلة تؤديها الجملة ، وهذا مما ميز السمة التركيبية للجملة .

وهناك إضافة بيانية حكمتها الجملة ، عن طريق (حرف الفاء) التي ألصقت في بداية الجملة ، و(حرفي الواو) في الجملتين العاطفتين اللتين بعدها : (جاءتهم رسلهم بالبينات فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِمْ مُرِيْبٍ) ؛ حيث تشير إلى أن موقف الرد والرفض جاء سريعا دون تفكير أو تريث منهم ، وأن الجملتين العاطفتين حكمتا تفصيلا جاء نتيجة موقفهم المباشر هذا ، ولعل هذه القرينة اللغوية تقرب الوجه أن الضمائر الثلاثة في (ردوا . أيديهم . أفواههم) تعود للكفار ، بقرينة حرف (الفاء) الذي حكا معنى الرفض عند القوم ، إضافة إلى انتظام وتتابع الجمل العاطفة .